وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

وأما قوله : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) [الأعراف : ١١ ـ ٣٠] إلى آخر القصة.

قال ابن القيم قال ابن عباس : (ولقد خلقناكم) يعني آدم (ثم صورناكم) لذريته ، ومثال هذا ما قاله مجاهد : (خلقناكم) يعني آدم (وصورناكم) يعني في ظهر آدم ، وفي الحديث المعروف أنه أخرجهم من ظهر آدم في صورة الذر ، ونظيره (فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) [الحج : ٤] والله سبحانه يخاطب الموجودين، والمراد آباؤهم ، كقوله : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) [البقرة : ٥٥] وغير ذلك من الآيات.

وقد يستطرد سبحانه من الشخص إلى النوع ، كقوله : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) إلى آخره [المؤمنون : ١٢ ـ ١٦] ، فالمخلوق من سلالة آدم ، ومن نطفة ذريته ، وقيل إن : (صورناكم) لآدم أيضاً ، وقوله تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) [ص : ٧٢] فأضاف النفخ إلى نفسه.

وفي الصحيح ـ في حديث الشفاعة ـ « فيقولون أنت آدم خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء » فذكروا له أربع خصائص ، فالمنفوخ منه الروح المضافة إلى الله ، إضافة تخصيص وتشريف ، والله هو الذي نفخ في طينته من تلك

الروح ؛ هذا الذي دل عليه النص.

وأما كون النفخة مباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده ، أو أنها بأمره ، كقوله في مريم : (فنفخنا فيها من روحنا) [الأنبياء : ٩١] مع قوله : (فأرسلنا إليها روحنا) إلى آخره [مريم : ١٧ ــ ٢١] فهذا يحتاج إلى دليل ، فإنه أضاف النفخ إلى مريم لكونه بأمره ؛ وإلى الملك لكونه المباشر للنفخ.

وفي القصة فوائد عظيمة ، وعبر لمن اعتبر بها ، منها : أن خلق آدم من تراب من أبين الأدلة على المعاد ، كما استدل عليه سبحانه في غير موضع ، وعلى قدرته سبحانه وعظمته ورحمته وعقوبته ؛ وهيبته وإنعامه وكرمه ، وغير ذلك من صفاته ؛ ومنها : أنها من أدلة الرسل عامة ، ومن أدلة نبوة محمد ﷺ خاصة ؛ ومنها : الدلالة على الملائكة وعلى بعض صفاتهم ؛ ومنها : الدلالة على القدر خيره وشره ، فقد اشتملت على أصول الإيمان الستة في حديث جبريل.

ومنها ــ وهي أعظمها ــ أنها تفيد الخوف العظيم الدائم في القلب ؛ وأن المؤمن لا يأمن حتى تأتيه الملائكة عند الموت تبشره ، وذلك من قصة إبليس وما كان فيه أولاً من العبادة والطاعة ، ففي ذلك شيء من تأويل قوله ﷺ : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع » إلى آخره.

ومنها : أن لا يأمن عاقبة الذنب ، ولو كان قبله طاعات كثيرة ، وهو ذنب واحد ، فكيف إذا كانت الذنوب بعدد رمل

عالج ؟! ومن هذا قول بعض السلف : نضحك ولعل الله اطلع على بعض أعمالنا ، فقال : اذهبوا فلا أقبل منكم عملاً ، أو كلاماً هذا معناه.

وأبلغ منه قوله ﷺ : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، لا يلقى لها بالاً ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » قال علقمة : كم من كلام منعنيه حديث بلال ، يعني هذا ؛ ومنها أنها تخلع من القلب داء العجب ، الذي هو أشد من الكبائر.

ومنها ــ وهي من أعظمها ــ أنها تعرف المؤمن شيئاً من كبرياء الله وعظمته وجبروته ؛ ولا يدلى عليه ، ولو بلغ في الطاعة ما بلغ ، وقد وقع في هذه الورطة كثير من العباد ، فمستقل ومستكثر ؛ ومنها : التحذير من معارضة القدر بالرأي ، لقوله : (أرأيتك هذا الذي كرمت علي) [الإسراء : ٦٠] وهذه بلية عظيمة لا يتخلص منها إلا من عصمه الله ، لكن مقل ومكثر.

ومنها ــ وهي من أعظمها ــ تأدب المؤمن من معارضة أمر الله ورسوله بالرأي ، كما استدل بها السلف على هذا الأمر ، ولا يتخلص من هذا إلا من سبقت له من الله الحسنى ، ومنها : عدم الاحتجاج بالقدر عند المعصية ، لقوله : (رب بما أغويتني) [الحجر : ٣٩] بل يقول كقول أبيه : (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية [الأعراف : ٢٣].

ومنها : معرفة قدر المتكبر عند الله ، خصوصاً مع

قوله : (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) [الأعراف : ١٣] ومنها الفخر بالأصل ، وقد ورد عن النبي ﷺ التشديد في ذلك ؛ والفخر منهي عنه مطلقاً ، ولو كان بحق ، فكيف إذا كان بباطل؟

ومنها : الشهادة لما كان عليه السلف ، أن البدعة أكبر من الكبائر ، لأن معصية اللعين كانت بسبب الشبهة ، ومعصية آدم بسبب الشهوة ؛ ومنها : عدم الاغترار بالعلم ؛ فإن اللعين كان من أعلم الخلق ، فكان من أمره ما كان.

ومنها : عدم الاغترار بالرتبة والمنزلة ، فإنه كان له منزلة رفيعة ؛ وكذلك بلعام وغيره ممن له علم ورتبة ثم سلب ذلك ، ومنها : معرفة العداوة التي بين آدم وذريته ، وبين إبليس وذريته ، وأن هذا سبباً لما طرد عدو الله، ولعن بسبب آدم لما لم يخضع.

وهذ المعرفة مما يغرس في القلب محبة الرب جل جلاله ، ويدعوه إلى طاعته وإلى شدة مخالفة الشيطان ، لأنه سبحانه ما طرد إبليس ولعنه ، وجعله بهذه المنزلة الوضيعة بعد تلك المنزلة الرفيعة ، إلا لأنه لم يخضع بالسجود لأبينا آدم ، فليس من الإنصاف والعدل موالاته ، وعصيان المنعم جل جلاله ، كما ذكر هذه الفائدة بقوله : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً) [الكهف : ٥٠].

ومنها : معرفة شدة عداوة عدو الله لنا ، وحرصه على

إغوائنا بكل طريق ، فيعتد المؤمن لهذا الحرب عدته ، ولا يعلم قوة عدوه وضعفه عن محاربته إلا بمعونة الله ، كما قال قتادة : إن عدواً يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم ، إنه لشديد المؤونة إلا من عصمه الله ، وقد ذكر الله عداوته في القرآن في غير موضع ، وأمرنا باتخاذه عدواً.

ومنها ــ وهي من أعظمها ــ معرفة الطرق التي يأتينا منها عدو الله ، كما ذكر الله تعالى عنه في القصة ، أنه قال : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) [الأعراف : ١٦ ، ١٧] وإنما تعرف عظمة هذه الفائدة ، بمعرفة شيء من معاني هذا الكلام ، قال جمهور المفسرين : انتصب صراط بحذف « على » التقدير لأقعدن لهم على صراطك.

قال ابن القيم : والظاهر أن الفعل مضمر ، فإن القاعد على الشيء ملازم له ، فكأنه قال : لألزمنه ولأرصدنه ونحو ذلك ، قال ابن عباس : دينك الواضح (ومن بين أيديهم) يعني الدنيا والآخرة (ومن خلفهم) يعني الآخرة والدنيا (وعن أيمانهم) قال ابن عباس : أشبه عليهم أمر دينهم ؛ وعنه أيضاً من قبل الحسنات ؛ وقوله : (وعن شمائلهم) الباطل أرغبهم فيه ، قال الحسن : السيئات يحثهم عليها ويزينها في أعينهم.

قال قتادة : أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه ، إلا أنه لم يأتك من فوقك ، ولم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله ؛ وهو يوافق قول من ذكر هذه الأوجه ، للمبالغة في

التوكيد ، أي : أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم ؛ ولا يناقض ما ذكر السلف ، فإن ذلك على جهة التمثيل ، فالسبل التي للإنسان أربعة فقط.

فإنه تارة يأخذ على جهة شماله ، وتارة على يمينه ، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه ، فأي سبيل من هذه سلكها وجد الشيطان عليها راصداً له ، فإن سلكها في طاعة ثبطه ؛ وإن سلكها بالمعصية حداه ؛ وأنا أمثّل لك مثالاً واحداً لما ذكر السلف ، وهو : أن العدو الذي من بني آدم ، إذا أراد أن يمكر بك ، لم يستطع أن يمكر إلا في بعض الأشياء ، وهي الأشياء الغامضة ، والأشياء التي ليست بعالية.

فلو أراد أن يمكر بك في أمر واضح بين ، مثل التردي من جبل ؛ أو بئر وأنت ترى ذلك لم يستطع ، خصوصاً إذا عرفت أنه قد مكر بك مرات متعددة ، ولو أراد ليمكر بك لتتزوج عجوزاً شوهاء ، وأنت تراها لم يستطع ذلك.

وأنت ترى اللعين ــ أعاذنا الله منه ــ يأتي الآدمي في أشياء واضحة بينة أنها من محارم الله ، فيحمله عليها حتى يفعلها ؛ ويزينها في عينه حتى يفرح بها ، ويزعم أن فيها مصلحة ويذم من خالفه ؛ كما قال تعالى : (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) الآية [آل عمران : ١٨٨].

وقوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) [البقرة : ٤٢] وقوله : (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) [البقرة : ١٠٢] وهذا معنى قول

من قال : (من بين أيديهم) من قبل الدنيا فإنهم يعرفونها وعيوبها ومجمعون على ذمها ، ثم مع هذا لأجلها قطعوا أرحامهم ، وسفكوا دماءهم ، وفعلوا ما فعلوا ، وهذا معنى قول مجاهد (من بين أيديهم) من حيث يبصرون.

فهو لم يقنع بإتيانه إياهم من الجهة التي يجهلون أنها معصية ، مثل ما فسر به مجاهد (من خلفهم) قال : من حيث لا يبصرون ، ولا من جهة الغيب ، كما قال فيها بعضهم ، الآخرة أشككهم فيها ، لم يقنع بذلك عدو الله ، حتى أتاهم في الأمور التي يعرفونها عياناً ، أنها النافعة ، وضدها الضار ، وفي الأمور التي يعرفون أنها سيئات وضدها حسنات ، ومع هذا فأطاعوه في ذلك ، إلا من شاء الله منهم ، كما قال تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) ، [سبأ : ٢٠].

وقال تعالى ، حكاية عنه : (وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ، ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) الآية [النساء : ١١٨ ، ١١٩] قال الضحاك : مفروضاً معلوماً ، وحقيقة الفرض التقدير ، والمعنى : أن من اتبعه فهو نصيبه المفروض ؛ فالناس قسمان ، نصيب الشيطان ومفروضه ، وحزب الله وأولياؤه.

قوله : (ولأضلنهم) يعني عن الحق (ولأمنينهم) قال ابن عباس : تسويف التوبة وتأخيرها ، وقال الزجاج : أجمع

لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة ، وقوله : (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) البتك القطع . وهو ههنا قطع آذان البحيرة .

وقوله : (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) قال ابن عباس : دين الله ، وقاله ابن المسيب والحسن وإبراهيم وغيرهم ؛ ومعنى ذلك : أن الله فطر عباده على الفطرة وهي الإسلام ، كما قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها) الآية [الروم : ٣٠] .

وفي الصحيح : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه . . . » الحديث ، فجمع ﷺ بين الأمرين ، تغيير الفطرة بالتهويد وغيره ، وتغيير الخلقة بالجدع ، وهما اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما .

ثم قال تعالى : (يعدهم ويمنيهم) فوعده ما يصل إلى قلب الإنسان ، نحو : سيطول عمرك وتنال من الدنيا وتعلو ، والدنيا دول وستكون لك ، ويطول أمله ، ويعده الحسنى على شركه ومعاصيه ، ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها ؛ فالوعد في الخير ، والتمنية في الطلب والإرادة .

ومنها : أن معرفة هذه القصة تزرع في قلب المؤمن حب الله تعالى ، الذي هو أعظم النعم على الإطلاق ، وذلك من صنعه سبحانه بالإنسان وتشريفه ؛ وتفضيله إياه على الملائكة ، وفعله بإبليس ما فعل لما أبى أن يسجد له ، وخلقه إياه بيده ونفخه فيه من روحه ؛ وإسكانه جنته .

وقد خاطب الله سبحانه بني إسرائيل الموجودين في زمن النبي ﷺ بما فعل مع آبائهم ، وذكرهم بذلك واستدعاهم به ، وذكرهم أنه فعله بهم ، كقوله : (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) [البقرة : ٥٠] وغير ذلك.

وذكر النعم التي هي أصل الشكر الذي هو الدين لأن شكرها مبني على معرفتها وذكرها ، فمعرفة النعم من الشكر ، بل هي أم الشكر ، كما في الحديث : « من أسدى إليه معروف فذكره فقد شكره ، فإن كتم فقد كفره » هذا في الأشياء التي تصدر من بني آدم ، فكيف بنعم المنعم على الحقيقة والكمال؟

واجتمع الصحابة يوماً في دار يتذاكرون ما منّ الله عليهم به ، من بعثة محمد ﷺ ، وجلس الفضيل وابن أبي ليلى يتذاكرون.

ومنها : أن التأويل الفاسد في رد النصوص ليس عذراً لصاحبه ، كما أنه سبحانه لم يعذر إبليس في شبهته التي ألقاها ، كما لم يعذر من خالف النصوص متأولا مخطئاً ، بل كان ذلك التأويل زيادة في كفره.

ومنها : أن مثل هذا التأويل ليس على أهل الحق أن يناظروا صاحبه ، ويبينوا له الحق ، كما يفعلون مع المخطىء المتأول ؛ بل يبادر إلى عقوبته بالعقوبة التي يستحقها بقدر

ذنبه ؛ وإلا أعرض عنه إن لم يقدر عليه ؛ كما كان السلف الصالح يفعلون هذا وهذا.

فإنه سبحانه لما أبدى له إبليس شبهته فعل به ما فعل ؛ ولما عتب على الملائكة في قيلهم ، أبدى لهم شيئاً من حكمته وتابوا ؛ وقد وقعت هذه الثلاث لرسول الله ﷺ في غزوته التي فتح الله فيها مكة ، فإنه لما أعطى المؤلفة قلوبهم ، ووجدت عليه الأنصار عاتبهم واعتذروا وقبل عذرهم ، وبين لهم شيئاً من الحكمة.

ولما قال له ذلك الرجل العابد اعدل ، قال له كلاماً غليظاً ؛ واستأذنه بعض الصحابة في قتله ولم ينكر عليه ؛ لكن ترك قتله لعذر ذكره ، ولما فعل خالد بن الوليد ببني جذيمة ما فعل ، رد عليهم ما أخذ منهم ووداهم، ولا نعلم أنه عاتب خالداً ولا منعه ذلك من تأميره على الناس.

ومنها : أن الشبهة إذا كانت واضحة البطلان ، لا عذر لصاحبها ، فإن الخوض معه في إبطالها تضييع للزمان ، وإتعاب للحيوان ، مع أن ذلك لا يردعه عن بدعته ، وكان السلف لا يخوضون مع أهل الباطل في رد باطلهم ، كما عليه المتأخرون ، بل يعاقبونهم إن قدروا ، وإلا أعرضوا عنهم ، وقال أحمد لمن أراد أن يرد عليهم : اتق الله ولا تنصب نفسك لهذا ، فإن جاءك مسترشد فأرشده.

وهو سبحانه لما قال اللعين : (أنا خير منه) ، (قال فاخرج منها فإنك رجيم) [ص : ٧٦ ، ٧٧] ولما قالت

الملائكة ما قالت (قال إني أعلم ما لا تعلمون) [البقرة : ٣٠] ثم بين لهم ما بين حتى أذعنوا.

ومنها : معرفة قدر الإخلاص عند الله ، وحماية الله لأهله ، لقول اللعين : (إلا عبادك منهم المخلصين) [ص : ٨٣] فعرف عدو الله أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص.

ومنها : أن كشف العورة مستقر قبحه في الفطر والعقول ، لقوله : (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما) [الأعراف : ٢٠] وقد سماه الله فاحشة.

ومنها : أنه لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بالفجرة ، بل يكون على حذر منهم ، ولو قالوا ما قالوا ، خصوصاً أولياء الشيطان ، الذين تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته ، فإن اللعين حلف (إني لكما لمن الناصحين) [الأعراف : ٢١].

ومنها : أن زخرفة القول قد تخرج الباطل في صورة الحق ، كما في الحديث « إن من البيان لسحراً » فإن اللعين زخرف قوله بأنواع ، منها : تسمية الشجرة شجرة الخلد ؛ ومنها : تأكيد قوله : (إني لكما لمن الناصحين) وغير ذلك مما ذكر في القصة ، فينبغي للمؤمن أن يكون من زخرف القول على حذر ، ولا يقنع بظاهره حتى يعجم العود.

ومنها : أن في القصة شاهداً لما ذكر في الحديث « إن من العلم جهلا » أي : من بعض العلم ما العلم به جهل ،

والجهل به هو العلم ؛ فإن اللعين من أعلم الخلق بأنواع الحيل ، التي لا يعرفها آدم ، مع أن الله علمه الأسماء كلها ، فكان ذلك العلم من إبليس هو الجهل ؛ وفي الحديث : إن الفاجر خب لئيم ، وإن المؤمن غر كريم.

وأبلغ من ذلك وأعم منه قول الملائكة : (أتجعل فيها من يفسد فيها) [البقرة : ٣٠] فقيل لهم ما قيل وعوتبوا ، فكانت توبتهم أن قالوا : (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) [البقرة : ٣٢] فكان كمالهم ورجوعهم عن العتب ، وكمال علمهم : أن أقروا على أنفسهم بالجهل ، إلا ما علمهم سبحانه ، ففي هذه القصة شاهد للقاعدة الكبرى في الشريعة المنبه عليها في مواضع ، منها قوله ﷺ : « وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها ».

ومنها : أنه لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بخوارق العادة ، إذا لم يكن مع صاحبها استقامة على أمر الله ، فإن اللعين أنظره الله تعالى ، ولم يكن ذلك إلا إهانة له وشقاء له ، وحكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير ، فينبغي للمؤمن أن يميز بين الكرامات وغيرها ، ويعلم أن الكرامة هي لزوم الاستقامة.

ومنها : أن الأمور التي يحرص عليها أهل الدنيا ، قد تكون عقوبة ومحنة ، والجاهل يظنها نعمة ، مثل المال والجاه وطول العمر ؛ فإن الله أعطى اللعين من النظرة ما أعطاه.

ومنها : أن يعلم المؤمن أن الذنوب كثيرة ، ولا نجاة له منها إلا بمعونة الله وعفوه ، وأن كثيراً منها قد لا يعلمه من

نفسه ، فإن أكثر الكبائر القلبية مثل الرياء والكبر والحسد ؛ وترك التوكل والإخلاص وغير ذلك ، قد يتلطخ بها الرجل وهو لا يشعر ، ولعله يتورع عن بعض الصغائر الظاهرة ، وهو في غفلة عن هذه العظائم ؛ ومنها : أن يعرف قدر معصية الحسد ، وكيف آل باللعين حسده إلى أن فعل به ما فعل.

ومنها ــ وهو من أحسنها ــ أن يعرف صحة ما ذكر عن بعض السلف : أن من لم يجاهد في سبيل الله ، ابتلى بالجهاد في سبيل الشيطان ؛ ومن بخل بإنفاقه المال في طاعة الله ، ابتلى بإنفاقه في المعاصي وفيما لا ينفعه ، ومن لم يمش في طاعة الله خطوات ، مشى في معصية الشيطان أميالاً[1] وأشباه ذلك.

والدليل من القصة أبلغ من هذا بكثير ، فإن اللعين أبى أن يسجد لزعمه أن ذلك نقص في حقه ، ثم صار بعد ذلك يكدح جهده في القيادة والدياثة وأنواع الرذائل ؛ ومنها : أن في القصة معنى قوله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » إلى آخره.

ومن ذلك قوله حكاية عن إبليس : ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ [النساء : ١١٩] فإنهم ذكروا في معناه ، أي: آمرهم بتغيير خلق الله ، وهي فطرته التي فطر عباده عليها ، وهي الإسلام لله وحده لا شريك له.

---

(١) كالحسد والكبر والإباء.

ومنها : أن فيها معنى القاعدة الكبرى في الشريعة ، المذكورة في مواضع ؛ منها : قول النبي ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وهي من قوله : (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) فإنهم ذكروا أن معناه : قطع آذان البحيرة تقرباً إلى الله ، على عادات الجاهلية .

ومنها : أنها تفيد المعنى العظيم المذكور في قوله تعالى : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) [الأنفال : ٢٤] وما في معناه من النصوص ، وذلك مستفاد من صنع اللعين ؛ فإنه مع علمه بجبروت الله وأليم عذابه ، وأنه لا محيص له عنه ؛ ويعرف من الأمور ما لا يعرفه كثير من أهل العلم ، ومع ذلك لم يتب ولم يرجع ، بل أصر وعاند ، وطلب النظرة لأجل المعصية مع علمه بعقابه وعدم مصلحته من فعله ، وهذا باب عظيم من معرفة الرب وقدرته ، وتقليبه القلوب كيف يشاء ، وتيسيره كل عبد لما خلق له فيفعله باختياره .

ومنها : أن الله سبحانه قد يعاقب العبد إذا غضب عليه ، بعقوبات باطنة في دينه وقلبه ، لا يعرفها الناس ، مع إمداده إياه في الدنيا ، كما قال تعالى : (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه) [التوبة : ٧٧] كما فعل إبليس ؛ ومنها : أن فيها شهادة لما ذكر عن بعض السلف ، أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها .

ومنها : أنها تفيد القاعدة المعروفة ، أن الجزاء من

جنس العمل ، وذلك أنه قصد الترفع ، فقيل له : (اخرج إنك من الصاغرين) [الأعراف : ١٣] فقصد العز فأذله الله بأنواع من الذل ؛ ومنها : الشهادة لصحة الكلام المذكور عن بعض السلف ، في قوله : والله إن معالجة التقي التقوى : أهون من معالجة غير التقي الناس ، وقول من قال : مصانعة وجه واحد ، أهون من مصانعه ألف وجه.

وبيان ذلك : أن اللعين لما تخيل أن عليه من أمر الله شيئاً من النقص ، فلو قدم طاعة الله وآثرها على هواه وسجد لآدم ، فلو قدر أن ما تخيله صحيح ، وأن ذلك غضاضة عليه ، لكان في جنب ما آتاه من الشر والهوان والصغار جزءاً يسيراً ، فالله المستعان ، فكيف ولو فعل ذلك لكان فيه شرفه وسعادته ، كما هو عادة الله في خلقه : أن من تواضع لله رفعه.

ومنها : أن الفاجر قد يعطيه الله سبحانه كثيراً من القوى والإدراكات في العلوم والأعمال ، حتى في صحة الفراسة ، كما ذكر عن اللعين حين تفرس فيهم أنه يغويهم إلا المخلصين ، فصدق الله فراسته في قوله : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) [سبأ : ٢٠].

فإن قيل في الحديث : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » فلا يناقض ما ذكرناه ، بل يدل على أن المؤمن أتم في هذه الخصلة من غيره وأصدق ، كما كان في العلم والإيمان والأعمال والحلم والصبر وغير ذلك ، ولو كان

للفجار شيء من ذلك ؛ ومنها : الشهادة للقاعدة المعروفة في الشريعة ، أن كل عمل لا يقصد به وجه الله فهو باطل ، لاستثنائه المخلصين.

ومنها : الشهادة للقاعدة الثانية ، وهي : أن كل عمل على غير اتباع الرسول غير مقبول ، لقوله في القصة : (اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى) الآية [البقرة : ٣٨] فقسم الناس إلى قسمين ، إلى أهل الجنة ، وهم الذين اتبعوا الهدى المنزل من الله ، وأهل الشقاق والضلال ، وهم من أعرض عنه ، فانتظمت هذه القصة لهاتين الآيتين العظيمتين ، اللتين هما أكبر قواعد الشريعة على الإطلاق ؛ القاعدة الأولى فيها حديث عائشة « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ».

وقال أيضاً : المسائل التي ذكر في قصة إبليس وآدم ؛ الأولى ، أن هذين : واحد من خيار الملائكة ، وآدم نبي ، وكل منهما ما عصى غير مرة ، فآدم أكل الحرام ، وإبليس امتنع عن السجود وتكبر ؛ والإنسان كم يقع منه في اليوم من مرة ؟ فإن وقعت من غيرك ما استنكرتها ، ولا تجسر تصلى وراء رجل أكل الحرام ، إلا مال اليتيم ، فهو عندك خفيف والسبب العادة ؛ وأما ذنب إبليس فلا يستنكر ، وأكثر ما يقع الكبر من الرؤساء بعلم أو غيره.

الثانية : كون الإنسان يفتخر بنسبه وهو علة إبليس ، الثالثة : كون الإنسان يدعو بطول العمر ؛ ولو كان فيه زيادة

ما أعطيه إبليس ، وآدم لم يعطه ، وذكر في قوله : (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) الآية [الأعراف : ٣٠] لو تصورها في حالة الدنيا ، لو يجيء رجل من الأحساء من أهل الدرعية ومعه مال ، وإذا أقبل على البلاد ، وإذا جمع ابن دواس وجمع أهل الدرعية ، وكونه يذهب إلى ابن دواس[1].

وقال رحمه الله تعالى : الخامسة والعشرون ، فيها : تذكيره ما يواري السوءات ؛ الثانية : تذكيره بإنزال الريش ؛ الثالثة : تذكيره بإنزال لباس التقوى ؛ الرابعة : إخباره بخير اللباسين ؛ الخامسة : ذكره أن ذلك من آياته ؛ السادسة : ذكره الحكمة في ذلك.

السادسة والعشرون : إخباره وإنذاره عن فتنة الشيطان ؛ الثانية تمثيله بما لا يستطيع أحد دفعه ؛ الثالثة : ما جرى في طاعته من التعب العاجل ؛ الرابعة : نزعه عنهما لباسهما ؛ الخامسة : مراده في ذلك ؛ السادسة : تنبيهنا على هذا المهم ؛ وهو كونهم يروننا ولا نراهم ؛ السابعة : القاعدة الكلية ، وهي من مسائل الصفات.

السابعة والعشرون : فيها إنكاره عليهم هذه الفاحشة ؛ الثانية : الرد على من أنكر التحسين والتقبيح العقلي ؛ الثالثة : إنكار حجتهم الأولى والثانية ؛ الرابعة أمره بالقول الذي فيه تنزيه الله عن ذلك ؛ الخامسة اشتمال هذا الكلام على ما لا

(١) أي : وهو عدوه.